الغابة زمن الصيد

قصّة قصيرة

محمّد غرناط

استقرت الشمس في كبد السماء. بدا لعلوان أنها لا تتحرك. ثابتة هناك تنبعث منها أشعة محرقة . يدفن رأسه بين يديه ويتابع سيره . الغابة أمامه على بعد في صمتها المألوف . تبدو للرائي من فوق مربعاً سميكاً منغلق الزوايا . تتوزع فيها أشجار قائمة في غير نظام . أشجار تعرت من أوراقها . امتدت جذورها في الأرض حتى ليبدو لمن يراها أنها لن تزول . لقد تعرت بعض جذورها بفعل الأمطار التي تسقط لماماً . في احدى الزوايا بيت من تراب قديم . ظل علوان يدلف نحوه حتى وصل . ابصرته زوجته قبل الوصول فهرعت نحوه ، كانت تطل من النافذة . أخذت « الزكاوة » من بين يديه ودخلا . أزال علوان النعل ومد رجليه المتشققتين أمامه . بينما زهرة أخذت تفرغ الزكاوة . كان الخبز قليلاً وليس بها سكر . سألته :

ـ اليوم قليل .

ـ اليوم الأحد . الناس يتصدّقون يوم الجمعة .

ـ وهل تنتظر دائماً الجمعة ؟

ـ جمعة هذا العام ليست كجمعة العام الماضي

صمتت . ضحك علوان ثم قال ليطمئنها :

ـ هذا العام سيهطل مطر غزير وأفلح الأرض أمامنا .

لم تطمئن . ضحكت لكلامه وقالت :

ـ ونصبح أغنياء الدنيا .

أدرك مقصودها فصمت . اتكأ على ذراعه وأرسل نظره عبر النافذة . الجو عائم بالشمس . الطيور على أعواد الشجر ترسل أصواتاً كئيبة . يلتفت علوان نحو زوجته قائلاً :

ـ أنت امرأة طيبة يا زهرة .

لم تهتم بكلامه . فسألته وكأنها كانت في انتظار أن يقطع الصمت :

ـ هل جئت بفلوس ؟

ـ اليوم لا . غداً ربما . أو بعد غد . لا تحزني .

التفتت نحو الحائط ، فاستشعر الحقارة . أحنى رأسه للأرض ولم يتكلم . ران صمت ثقيل تقطعه بين الحين والآخر أصوات الطيور . ارتفع في الخارج صوت قوي كسر الصمت نهائياً . تحرك البيت كأنما أصابه زلزال . قال علوان لزوجته :

الصيادون .

اقترب من النافذة وأطل برأسه . لا أثر للطيور . فرت كلّها واتجهت صوب الشمس . الغابة فارغة الآن . عاد علوان برأسه وقال :

ـ الصيادون لا يحترمون شعور أحد .

ـ تعلم الصيد أنت كذلك وستصبح غنياً من غير أن تنتظر مطراً أو تحرث أرضاً .

شعر بالإهانة ، علوان تجاوز الستين ، والصيد يحتاج إلى قوة ودقة ، الى مهارة ومكر ، وعلوان حين يقطع حياً يصيبه العياء فيجلس ليستريح . وأحياناً ينام ، ثم يستفيق ويتابع الطريق . يندفع مرة أخرى نحو النافذة ويطل . الصياد بين الاشجار العارية . البندقية تحت ابطه . يصوّبها بإحكام وقد وقف على ركبتيه . يحني علوان رأسه ويده ما تزال تشد على حافة النافذة . يقول لزوجته :

ـ البندقية باتجاه النافذة . إذا أطلق رصاصة أصابت قلب بيتنا وحطمته .

ـ فلتكن خطوة مباركة . ماذا تعمل هنا . خير لك أن تموت . نحن أحقر من تلك الطيور .

ـ لسنا أسخياء لتلك الدرجة . الروح عزيزة عند الله .

ـ وما تساوي إذن ؟ أنت لا تقدر على فعل شيء ، فمن الأحسن أن تموت .

ـ على الأقل أنا آتيك بخبز واحياناً سكر وفلوس . .

نظرت اليه بامتعاض بالغ . لمس في عينيها وحشية الصياد .

ـ أريد أن أطل لكن أخاف أن تصيبني رصاصة .

ـ سأطل أنا مكانك اذا كانت روحك عزيزة عليك .

دنت من النافذة . كان الصياد على مسافة غير بعيدة من البيت . قالت وهي واقفة الى النافذة :

ـ هذه الرصاصة لا يمكن أن تقتل . إذا خفت منها فانك تموت دون أن تصيبك . الاشجار لا تحضن أغصاناً . حين تهب ريح لا تنبعث منها رائحة . الغابة من غير لون . الاشجار في علوها تحاور الفضاء والشمس . تعود الطيور وكأن شيئاً لم يحدث . تستقر على الاشجار . تعود زهرة الى مكانها ويقف علوان . يصوّب الصياد بندقيته . إنه لا يميز حين يقذف . يلتفت نحو زوجته :

ـ كل المخلوقات تحب الحياة ولا تريد أن تموت . سبحان من له الدوام . حتى الطيور تفر حين يداهمها الرصاص .

ـ . . . .

ـ لكن الصياد دائماً يطاردها . لا يفارقها لحظة .

ـ الغريب رغم أن الصيادين يكثرون فالطيور تزداد .

ـ . . . .

ـ بل لربما الطيور أكثر . بل إنها أكثر . . أكثر !!

المسافة بعيدة بينه وبين زوجته . تكومت كنفاية على رصيف مهجور . الصياد يتحرك بمهارة تحت الشجرة العارية . يحاول ألا يحدث صوتاً . يخاف أن تهرب الطيور . يصوب بندقيته . يقبضها باحكام . يصوب نحو سرب متكتل . يبتسم علوان . يا لفرحة الصياد ! عشاء لذيذ كل مساء . يأكل لحم الطيور . يشويه على لهيب النار . عينا الصياد كعيني قط فقد الوعي ، متسمرتان ، ثابتتان . يخترق الغابة كلب . ينبح . تترك الطيور الاشجار وتحلق في الفضاء . يرسل الصياد وراءها الرصاص . يتفجر الصمت . يهبط علوان برأسه حتى يهدأ الانفجار ثم يقف على قدميه ويثبتها . تعود الطيور الى أمكنتها .

تكرر الحركة بتلقائية . تمارس الحب في الحرّ . تلد . تتكاثر . يشعر علوان بلذة كلذة الجنس . تسري في جسده رعدة ذات طعم خاص . ينظر إلى جسد زوجته ثم خارج النافذة . الطيور بريئة جميلة على الاشجار . عينا الصياد تلتمعان ، تكتسح وجهه الكآبة . يجلس تحت الشجرة . الشجرة ممتدة كشارع طويل لا ينتهي . يخترق الغابة كلب آخر . ينبح . يصوب الصياد البندقية نحو الكلب . يطلق الرصاص .

يتكسر الصمت . ينحني علوان ثم يقف . تلاحقت الأسراب كشيء لا نهاية له . نظر إلى الصياد فأحس وحشته . الصياد تحت الشجرة ومن فوقه الطيور . كلب يخترق الغابة . الكلاب تتشابه . الطيور تتشابه . الكلاب والطيور ! الصيادون تعبوا لأن حرارة الشمس قوية . نظر علوان طويلاً من النافذة . النافذة تحتوي الغابة العارية . كلّ من الوقوف فجلس وتمدد إلى جانب زوجته . شعرت بمجيئه فاستيقظت . قصدت النافذة . الصياد تعب . تخلى عن البندقية وأخفاها تحت رجله . أسند ظهره إلى جذع شجرة وأغمض عينيه . الغابة في صمت تقطعه أصوات الطيور الكليلة . نظرت زهرة الى زاوية البيت فرأت قطع خبز يابسة . تذكرت الكلاب فتبدّى في عينيها حنين جارف .